

بسم جهرير للثقافة الإسلامية

للاستاذ محمد المكي الناصري

عضو البعثة المغربية

للغرب قضية مروعة ضد الشرق ، وللشرق الاسلامى ثقافة عظيمة هي موضوع التهمة في هذه القضية ، ونحن واثقون أنه لو تقدم بثقافته الى الغرب وأحسن في تقديمها ، لدفع اتهامه ، وكسب احترامه ، ولكن إذا كان اعتبار هذه التهمة باطلة ، من الوجهة النظرية البحتة ، أمراً سهلاً لا يكلف غير قليل من الجدل والكلام ، فإن اعتبارها باطلة من الوجهة العملية ، يكلف أبناء الشرق من الجهود المحترمة ، والأعمال المنظمة مالا تستطيعه الافراد ، وإنما تتوافر عليه همم الجماعات المختلفة ، وتشترك فيه إرادات الامم المتعددة ، ولعل تهمة الغرب من هذه الوجهة ستظل قائمة كما كانت ، حتى يكشف الشرقيون عن جوانب ثقافتهم ، ويعرضوا على الانظار جميع خصائصها ومزاياها ، وحتى يجعلوها حديث الاوساط المتمدنة والهيئات العلمية في العالم من أقصاه إلى أقصاه ، ولا أظن أننا سنحصل في يوم من الايام إلى هذا الغرض السامي العظيم فإلم تخرج مصادر هذه الثقافة كلها من مجاهلها فتصبح في متناول جميع الباحثين ، ومالم نبعث ثقافتنا بعثاً جديداً على أيدي الكتاب والمدرسين ، فنلقنها للعامة على أعمدة الصحافة ، ونلقنها للخاصة من فوق منابر الجامعات ، وأرى أن أهم الوسائل التي تساعدنا على بلوغ هذه الغاية تنحصر في ثلاثة أمور : (١) نشر مصادر الثقافة الاسلامية ، (٢) نقدها والبحث فيها (٣) دراستها في الجامعات الشرقية ، واعتبارها مادة أساسية في تعليم الشرقيين .

(١) أما نشر مصادر الثقافة الاسلامية فهو عمل كبير ، يعوزه المال الكثير ، ويحتاج إلى تأليف شركات للطبع على هذا الاساس ، ونحن لسنا بغافلين عن الجهود التي تبذلها « دار الكتب المصرية » لنشر شيء من هذه المصادر ، وإنما الذي نلاحظه أنها تقتصر عنايتها في الغالب على نشر المصادر الأدبية ، بينما الواجب أن توزع عنايتها بالتساوى على جميع فروع الثقافة الاسلامية ، كما أننا نعلم أن هنالك « لجنة محترمة للتأليف والترجمة والنشر » قدمت لمجهور القراء مؤلفات قيمة ، ومترجمات نافعة ، ولكنها إلى الآن فيما أعلم لم تقم بنشر مصدر محترم ، من مصادر الثقافة الاسلامية ، ولا يزال أملنا قوياً في عنايتها بهذا الواجب ، ولا نقفل هنا أن

المستشرقين بذلوا جهوداً حسنة ، ونشاطاً عظيماً في هذه السبيل فواجب أن نستفيد من هذه الجهود بالطريقة التي نرضينا ، ولا مانع عندنا من أن نقدر نشاطهم أحسن تقدير . بل نحن نعبئهم على عناية حكوماتهم بتحقيق أغراضهم وإجابة رغباتهم : وأرى أنه لو قامت هيئة محترمة من بين الشرقيين ، وبحثت عن جميع المصادر الجديدة بالنشر والطبع ، لاحياء الثقافة الاسلامية ، وقدمت بذلك رجاء إلى ملوك الشرق الذين ورثوا عروش العباسيين والفاطميين والأندلسيين ، ترجوهم أن يتبرع كل منهم لطبع هذه المصادر بما تسمح به أريحته ، ويرتضيه كرمه . لتقدم ملوك الشرق أجمعون إلى هذه المأثرة برحابة صدر وسماحة نفس ، ولقد هم في ذلك المرءة الشرقيون من أمراء وزعماء ، ولرايت مكاتب الباحثين قد امتلأت بمصادر البحث وأسس الاحياء . وتستطيع هذه الهيئة وقتئذ تأسيس « بيت الحكمة » من جديد . وتكون نقفائة مشتركة بين الحكومات الشرقية وبين ملوك الشرق . فيقوم « بيت الحكمة » بعملية التصحيح والنشر ، كما كان يقوم من قبل بأعمال الترجمة والتأليف .

٢ — وأما الكتابة عن الثقافة الاسلامية والبحث فيها ، فنظرا إلى أن هذه الثقافة تراث مشترك بين شعوب إسلامية كثيرة ، أرى من الواجب على كل شعب ساهم في هذا التراث ، أن يقوم على العناية بسهمه قبل كل شيء ، وأن يجتهد لتحديد نصيبه الخاص من هذه الثقافة تحديداً تاماً ، فحصر مثلاً يجتهد مفكرها وأهل العلم فيها أن يخرجوا لنا أبحاثاً علمية ومؤلفات قيمة تكشف الستار عن مفاخر « مصر الاسلامية » في التشريع أوفى الادب : أوفى التاريخ أوفى الطب ، أوفى الفلسفة . وغير ذلك من أنواع العلوم . و « المغرب الاسلامي » يجتهد أبنائه في عرض مفاخره الفكرية ، على جميع أبناء الشرق الآخرين ، وبهذا الأسلوب وشبهه من « توزيع العمل » يتمكن أبناء الشرق الاسلامي من إحياء ثقافتهم في زمن غير طويل ، ويجب أن ينظر الى هذا الاقتراح ، على أنه وسيلة من وسائل تنظيم الجهود وتوزيع الواجبات لا أقل ولا أكثر ، وليس هذا دعوة منا الى استئثار كل شعب بمفاخره الخاصة ، والاقتصار على دراسة نصيبه الخاص ، فهذا ما لا نريده أبداً ، بل ولا يمكن أن يكون ، وإنما قصدنا حفز الهمم وإثارة العزائم ، حتى ينهض أعضاء العائلة الشرقية باحياء رجالها وبعث ثقافتهم بطريقة علمية مقبولة ، ونحن لا نجهل ما يلزم لهذه الابحاث من صبر طويل وجهد لا ينقذ ، ونعرف تمام المعرفة أن الثقافة الاسلامية واسعة الجوانب ممتدة الاطراف وانها لا تزال كما تركها الاسلاف ، غير ممهدة التمهيد الكافي ، ولا منظمة التنظيم الواجب . وأن كثيراً من

مصادرها تختلف أساليبه عن أساليبنا ، ومناهج بحثه عن مناهجنا ، ولكن صعوبة العمل لا تقوم عقبة في سبيل الواجب ، بل هي عندى أهم الاسباب التى تدفع الشرقيين الى التعاون جميعا على القيام بهذه المهمة الكبرى و « يد الله مع الجماعة »

٣ — وأما إحياء الثقافة الاسلامية من جهة الدرس والتعليم ، فهو عمل عظيم يلقى على عاتق الجامعات القائمة الآن فى الشرق ، والتى ستقوم فيه من بعد ، فواجب على جامعات الشرق الاسلامى أن تضع على رأس دراساتها دراسة « تاريخ المجهودات الفكرية » التى بذلها المسلمون فى كل فرع من فروع المعرفة ، وأن تكون هذه الدراسة أساسية فى كل جامعة من هذه الجامعات . وأن تقام فيها ما بين حين وحين ، حفلات تذكارية لاحياء ذكرى طيب أو كياوى أو فيلسوف أو أديب أو زعيم من زعماء الاصلاح ، وهكذا ، حتى يعرف الشرقيون مقدار نبوغ آبائهم ، ويؤمنوا بأن لهم وجودا مستقلا فى عالم العقل والتفكير والاكتشاف .

ولاشك أنه من الغريب جداً أن توجد جامعة شرقية ، تدرس الطب والعلوم والفلسفة والآداب والتاريخ والقانون فيعرف طلبتها نظريات الغربيين فى هذه الفروع جميعها ، دون أن يجعلهم على بصيرة تامة بنظريات أجدادهم الشرقيين فى هذه العلوم نفسها ، ومن غير أن تكشف لهم عما وضعوه من أسس المدنية الحديثة والعلم الحديث ، حتى ليخيل الى بعض هؤلاء الطلبة أن المدة الطويلة التى كان فيها أسلافهم ، إنما هي فترة ملغاة من حساب الزمن ، وأنها فترة جهالة وعما ، لا تدخل فى تاريخ الانسانية المتعددة !! ولولا الجهل بالثقافة الاسلامية ، لما أخذ هذا الفريق باعتقاد باطل كهذا الاعتقاد ، فواجب ، فى كلية الطب ، أن تكون مادة تاريخ الطب فى الاسلام مثلاً مادة اجبارية على الطلبة ، يعرفون منها مشاهير رجال الطب وإخاتهم واكتشافاتهم واصطلاحاتهم الفنية ، وما قدموه للطب من خدمات فى مختلف فروع ، وفى كلية الآداب ، يجب أن يدرس الى جانب الدراسات الفلسفية الغربية المطولة ، تاريخ الفلسفة الاسلامية بجميع فروعها ومذاهبها واصطلاحاتها ، والى جانب الدراسات التاريخية الوصفية تاريخ المؤرخين الاسلاميين أنفسهم وعرض مناهجهم التاريخية المختلفة وما وضعوه من فلسفة فى التاريخ ، والى جانب الدراسات الجغرافية ، تاريخ الجغرافية فى الاسلام ، وشرح اكتشافات الجغرافيين المسلمين ، وما ابتكروه من خرائط وصحجوه من أوضاع هى أسس مهمة فى هذا العلم ، وفى كلية الحقوق ، تدرس أصول القانون الاسلامى ، وفلسفة هذا القانون ، ووجوده الاشارة الى امتازها ببعض « المجتهدين » عن بعض ، وما ناسب هذا من الموضوعات التى لها صلة بالقانون ، وفى كلية العلوم ، يدرس مثلاً تاريخ الكيمياء

عند المسلمين مع مشاهير رجالها وأهل النبوغ والاكتشاف فيها، وبهذا نجد ثقافتنا الإسلامية بطريقة عملية حية، وتنحجها من البحث والدراسة والاحياء ما هي جدرة به بين الثقافات المختلفة وتخلق في جميع أصناف المثقفين، علميين وأديبين، أطباء ومحامين، روحاً قوية مؤمنة، ترمي الى وصل جهود المستقبل بنتائج الماضي في سلسلة واحدة، ولسان علمي واحد. وتنظر الى الاسلاف، نظرة عطف وإنصاف، وربما كان هذا النوع من الدراسة هو الميزة الوحيدة للجامعات الشرقية عن أخواتها الغربيات. والجامعة المصرية — فيما أعلم — هي أول جامعة شرقية شرعت تتجه في هذا الاتجاه، وتسعى للوصول الى هذه الغاية، وهي ماضية في سيرها بهمة ونشاط، وعن المنتظر بعد زمن غير طويل. أن يصبح للدراسات الشرقية مجال واسع في كليات الجامعة. وأن توجه فيها عناية فائقة الى الثقافة الإسلامية، بفضل أساتذتها الممتازين، وإدارتها الشرقية الحازمة.

ونحن إذا كنا حريصين على إحياء تاريخنا العلمي، وبعث ثقافتنا الإسلامية، فلسناق ذلك مهتدين ولا مغربين، ونظرة واحدة الى الجامعات الغربية نفسها، ترىنا كيف أن القوم لا تخلو أبحاثهم العلمية، من فكرة وطنية مستورة وراءها. فلو ذهبت الى جامعة فرنسية مثلاً لرأيت أن الاشخاص الذين يناون حظهم من الدراسة والعناية، والعرض القوي، والذكر الحسن عند كل فرصة، إنهم فرنسيون لهما ودماً وتفكيراً، وأن أول ما يقدمه الاستاذ الفرنسي لتلامذته في كل فرع من فروع المعرفة، إنما هو تعريفه بالجهود الفكرية الفرنسية ونموغ العقل الفرنسي في ذلك الموضوع، ثم يعرج بعد ذلك على رجال الالمان أو الانجليز، فيلقى عليهم نظرة بسيطة ويمرهم مروراً خفيفاً، وليس ذلك إلا خدمة للعقلية الفرنسية. وسعياً الى بث الايمان بها في نفوس الشباب الفرنسيين، ولو جلست الى شرقي متخرج في الجامعات الانجليزية مثقف بثقافتها، لوجدته لا يحسن الحديث عن المفكرين الفرنسيين، ولا عن الثقافة الفرنسية، لانه درس رجال الانجليز وحدهم، وآمن بعقيدة العقل السكوني دون سواء من العقول، وتعلم، في جملة ما تعلم، أن يجحد قيمة العقلية اللاتينية، وليس هو في ذلك إلا صورة طبق الاصل لاساتذته الانجليز، هذه حقيقة واقعية لا جدل فيها. يظهر أثرها في الدراسات الجامعية كما يظهر أثرها في نفس الكتب والمؤلفات، فما بالنا نحن الشرقيين لا نقلد الجامعات الغربية في روحها الوطنية التعليمية، ونجعل جامعاتنا قائمة منذ البدء على هذا الاساس؟

وما بالنا لا تأخذ بمبدئها في إيمانها المطلق برجالها ومفكرها ، قبل الايمان بغيرهم والعناية بمن
سواهم ؟



نحن لا نريد أن نقاوم الثقافة الغربية في جامعاتنا ، ونرفضها من دراساتها وأبحاثها ، وإلا نريد ،
الى جانب دراستنا لثقافة الغرب ، أن نبدأ في خدمة « تاريخنا العلمي كما نخدم تاريخنا القومي » .
نريد أن نعرف أبناء الشرق الاسلامي آثار أجدادهم وجهودهم في سبيل المعرفة ، وأن يقدرُوا
عقليتهم وعبقريتهم في جميع العلوم ، نريد أن لا يشعر أبناء الشرق أنهم في ميدان المعرفة لقطاء ،
ولا فقراء ، فقاقد الحسب والنسب . حقير أمام الناس وأمام نفسه ، وأسير الفاقة ، غريق دائماً
في بحر شقاقه وبؤسه . نريد أن يؤمن أبناء الشرق بأن العقلية الشرقية عقلية
مختصة ، موفقة في الانتاج عندما تواتمت الظروف ، نريد أن يربط أبناء الشرق حلقات
الحضارة الانسانية ، بعضها ببعض ، فيعرفوا أن الثقافة الغربية التي تسلمها اليوم ، إنما هي
بضاعة آباءنا ردت إلينا ، مضافاً إليها جهود التريبيين ونتائجهم ، حتى نضيف إليها جهودنا
وننتجنا نحن أحفاد الشرقيين السابقين . نريد أن نتعلم كيف يؤمن بنفاذ عقليتنا وحسن استعدادنا ،
وأن تكون جامعات الشرق هي مبعث هذا الايمان ، وأن يكون مثلها الأعلى هو تخريج
شباب يؤمنون بشرقيتهم وثقافتهم ، كما يؤمنون بوجودهم وشخصيتهم ، حتى اذا ما هضمنا
ثقافة الغرب ، وجمعنا ما فيها من عناصر صالحة ، الى ما في ثقافة آباءنا من عناصر خالدة ، أخرجنا
للانسانية ثقافة شرقية جديدة ، تمت سلسلة التاريخ الفكري للشرق ، وفي الوقت نفسه تمثل
عقلية الشرق ، ومزاج الشرق ، وتسيطر عليها روح الشرق ، وعند ذلك يستطيع الشرق أن
يدفع أخطرتهم الغرب ، وأن يسجل انتصاره النهائي في ميدان المعرفة ، كما سجل انتصاراته
الاولى في ميدان السياسة ، وتصبح حينئذ قيادة الانسانية ، بيد الشرق والشرقيين لا يحجدها
جاحد ، ولا يعاندها دعاند .

محمد المبكي الناصري